جامعة محمد خيضر-بسكرة

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربيّة

مخبر وحدة التّكوين والبحث في نظريّات القراءة ومناهجها

مداخلة المُشاركة في الملتقى الوطني الموسوم بـ:

سوق اللغات في الجزائر وسبل الانسجام الاجتماعي في ظل العولمة الثقافية

يوم: 07 أفريل2021

عنوان المداخلة: ازدواجية اللغة في الرواية الجزائرية وسؤال الهوية(اللغة، اللهجة القضايا والإشكالات)

الاسم واللقب: نور الهدى غرابة

الرتبة العلمية: سنة ثالثة دكتوراه

الاسم واللقب: وهيبة عجيري

الرتبة العلمية: أستاذ محاضر –ب.

التخصص: أدب حديث ومعاصر

المؤسسة الجامعية: محمد خيضر بسكرة

رقم الهاتف:0668635175

البريد الالكتروني: norelhouda.gheraba@univ-biskra.dz

محور المداخلة: احتكاك اللغات في الجزائر.

ملخص المداخلة:

تعدّ الرّواية من أكثر الأعمال الأدبيّة رواجا واقبالا، وهذا ما يعكس قيمتها وأهميّتها في السّاحة الإبداعيّة، فهي استطاعت أن تجسد المجتمع في مجالاته المختلفة (الفكريّة،

والثّقافيّة، والاجتماعيّة)، وقد عبرّت عنه بلغة خاصّة، مزجت بين المادّة التّخيليّة والمرجعيّات الثقافية، و تحقّق ذلك من خلال توظيف لغات مختلفة على غرار اللغة العربية داخل المتن الروائي، وسببه الاحتكاك والتواصل مع الشعوب الأخرى، وازدواجية اللغة ظاهرة لغوية مرتبطة بانخراط الرّوائي داخل المجتمع وحياة الأفراد بصفة خاصّة، الأمر الذي مكنه من نسج عالمه الروائي بطريقة سلسة ومميّزة تعكس جوانب الحياة في صورها المختلفة. وسنحاول من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على الروايات التي احتوت على ازدواجية اللغة ونعقب على أهم الاشكالات التي واجهها الروائي من خلال استخدامه للغات مختلفة.

ازدواجية اللغة في الرواية الجزائرية:

تتسع الرواية لأنماط متعددة من اللغات، وهذا ما لاحظناه عند قراءتنا لمجموعة من الروايات الجزائرية التي اختلط السرد فيها بالخطاب التاريخي والفكري والتراثي الذي ألفناه في كتب السير والحكايات، حيث نجد أن الروائي اعتمد في عمله الابداعي على المزج بين اللغة الفصحى والعامية التي يلجأ إليها في بعض المقاطع كونها الأقرب إلى المجتمع الجزائري. واللغة تعدّ من أهم مكونات الخطاب الروائي شأنها شأن البنية الزمكانية والشخصيات وتبقى المكون الأساسي يقول جيل دولوز G.Deleuze:" مع المفارقة ترقى اللغة إلى قوتها العليا"[1]، هنا تصبح اللغة رمزية ايحائية معبرة عن الفكرة وهذا ما نلاحظه في رواية" تلك المحبة" للحبيب السائح التي جاءت لغتها رمزية قريبة من لغة السير والحكايات لعيسى ابن هشام يقول" أستغفر الله وأرتجي الشفاعة من حبيبة. وأبتغي مرضاة الأقطاب والأولياء والأئمة والأوتاد، والحكماء والصالحين والصوفيّة والزهاد، ورجال الرمل والماء والفقراء والأعماد(...) أحدّث عما يقرّ في سمع عن الغوابر والحوادث، ما كان الإنسان منها قد فعل، أو الجان قد صنع. فبين وطن هذا أو ذاك عرق من الرمل يمتد برزخا، كلّما هبت الريح مرطته فالتقى

[1] جيل دولوز: "عن المفارقة"، ترجمة إدريس كثير، مجلة علامات، ع15،2001، ص44.

بعض ذاك ببعض هذا وحدثت الخوارق"[2] وظف الروائي لغة شعرية موحية دالة على منطقة "توات" وخصوصيتها الثقافية وتتسم في " صياغتها التعبيرية بومضات شاعرية مشحونة بانفعالات مبدعها، وأحاسيسه المرهفة، ودفقاته العاطفية وبوحيه الفني التخييلي" كما أنّها لغة تمتاز بالجمالية وحسن التركيب لأنها قريبة من اللغة الصوفية يقول:" ثنى عطفه... جمع دموعه من بين ثنايا التراب في خيط من عسجد قلدها جيده عقدا لؤلئيا... تأملني بحيرة المفارق... سبحت في عينيه بحيرتين غامضتين... تركني ومضى... فرّ من أمامي كأنه حمر مستنفرة فرت من قسورة... اعترتني قشعريرة رهيبة اصطك لها شعر رأسي فجلست القرفصاء أتأمله وهو يغيب بعيدا بعيدا عني

وتناهى إليّ وقع أقدام المدينة ترقص ثملة تضرب الأرض بكعبها العالي...فاندفعت في شوارعها موغلا في الابتعاد"[3] الملاحظ للمقطع السردي يجد أن اللغة أسلوبا وتعبيرا جاءت سلسة مليئة بالتوهج والوصف، وتحمل حروفها وألفاظها دلالات موحية ومؤثرة تعبر عن الموقف من المدينة.

وأحيانا أخرى يتخلص الروائي من فصاحة اللغة ويميل إلى اللغة العامية والتعبير الدارجي المتداول في الحياة اليومية رغبة في الاقتراب من القارئ، الأمر الذي جعل العامية قريبة من الفصحى يقول:" كان المراقب انسل من بين شابين متغطرسين وقبض عليهما من مؤخرة رأسيهما وضمّهما إلى بعضهما، كما يقفل بابا بمصراعين، مقطعا أصوات كلماته.

- أنت، كما، صاحبك.. هيا، للدوزيام.
- بالعقل عليك.. أطلقني!
- هيا امش!

---

[2] الحبيب السائح: تلك المحبة، ص11.

[3] عز الدين جلاوجي: سرادق الحلم والفجيعة(الأعمال غير الكاملة)، دار الأمير خالد، الجزائر، 2009،ص468.

- نحّ يدك! حاسب روحك حكومة؟ "[4]

تعد ازدواجية اللغة في النصوص الأدبية والنثرية على وجه الخصوص احدى المظاهر التي خلفتها مرحلة قبل الاستقلال أي المرحلة الاستعمارية على الساحة الأدبية الثقافية، لذا استوجب المثقف والقارئ الجزائري استعمال اللغة الرسمية (العربية) واللهجة العامية في النصوص المنقولة نظرا لإجباريتها كلغة ثانية من المشرع الجزائري وخاصة في النصوص المقروءة. إن استعمال اللهجة العامية في الجزائر لم يكن وليد الصدفة وإنّما هو تحصيل حاصل للخطط التي رسمها الكتاب في نصوصهم لتحقيق غايات محددة.

وباعتبار الرواية النص الرسمي الناقل للواقع الجزائري الحي كان لزاما على كتابها وخاصة تلك القلة التي تثقفت بثقافة الغرب أن تستعمل اللهجة العامية كعلامة دالة على ذلك الاحتكاك الحاصل بين الغرب والشرق ومحاولة نقل مخلفات الماضي للمثقف الجزائري والعربي على وجه العموم من اجل النهوض بالهوية العربية وذلك من خلال مقارنتها بالآخر الذي تمثله فرنسا وما يلحق بها من لغة ومعاملات وشخصيات وحتى الناحية الفكرية لأنهم لا يفقهون عدا العامية إلا الفرنسية قد تكون العامية من سلبيات ما خلفته فرنسا على الساحة فالتعليمية في الجزائر ولكن لاستعمال هذه اللهجة في النصوص الروائية الجزائرية بعض النقاط الإيجابية التي لا يمكن نكرانها أمام ما يعرف بالتعددية او ازدواجية اللغة كوسيلة مضادة لنقل وجهة نظر الكتاب الى الاخر أي المفرنسين أو الذي يتعامل باللغة الفرنسية كونه لا يفقه غيرها وخاصة في استعمال بعض المصطلحات التي ليس لها بديل عربي أو يصعب على هذه الفئة فهمها لعدم تداولها بالعربية.

ومن الكتاب الجزائريين الذين لمعت أسماؤهم في هذا الإطار واعتبروا اللهجة العامية نظاما من الرموز والاشارات التي تشير الى حقائق ومبهمات على المثقف التعرف عليها وتداولها على الساحة الأدبية سواء كان مؤيدا لاستعمالها أو مناهضا لها، المهم في ذلك ما

[4] الحبيب السائح: تماسخت" دم النسيان"، ص27.

وراء المعنى الذي يستقبل القارئ إزاء معرفته لهاته الرموز ودلالتها ولاسيما أن اللهجة مقتصرة على فئة معينة من أفراد المجتمع ونقصد بذلك الناطقين بها، باعتبار اللهجة تختلف من منطقة إلى أخرى وقد تختلف مدلولاتها أيضا بحسب المنطقة الناطقة بها مع منطقة أخرى رغم أن الدال أي اللفظ ذاته.

إنّ العامية على الرغم من تداولها وكينونتها سواء على الساحة الأدبية أو على الساحة النطقية في عصرنا الحالي فهناك من يؤدها كنظام لغوي دال يستطيع تحقيق المفهومية على صعيد أوسع بالنسبة للقارئ أكثر من الفصحى وحجتهم في ذلك التداول والاستعمال وقوة تأثيرها على القارئ يقول مصطفى صادق الرافعي في كتابه تاريخ" آداب العرب " بأن العامية "لغة خالفت الفصحى في المنطق الفطري وكان منشؤها في اضطراب الألسن، وخبالها وانتفاض عادة الفصاحة، ثم صارت الى ما تصير اليه اللغات المستقلة بتكوينها وصفاتها وعادت لغة في اللحن بعد ان كانت لحنا في اللغة".[5]

يؤكد "مصطفى صادق الرافعي" على المكانة التي تبوأتها العامية في الكتابات الحديثة والمعاصرة على وجه التحديد وكأن هذه الأخيرة سبيل الكاتب للتعبير عن الهوية التي ينتمي اليها والمكانة التي يتميز بها على المستوى الشخصي أو الجماعي، ولاسيما إذا كانت هذه اللهجة مرتبطة بمكانة المكان في حد ذاته.

وهنا تدخل العربية في صراع كبير مع اللهجة العامية أيهما تثبت وجودها على مستوى الاستعمال والانتشار لا غير بحكم ان اللغة العربية محفوظة المكانة في الاستعمال الرسمي لكونها لغة القرآن الكريم.

إن التفرعات التي عاشتها الجزائر بعد فترة الاستعمار وما خلفه هذا الأخير من صراعات وقلاقل دامية بين القبائل والأعراش جعلت الهوة تكبر وتتسع بين أفراد المجتمع وما

[5] مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار أصالة للطبع والنشر، القاهرة، ط:1، ج:1، 2010، ص162

نتج عن ذلك أدى إلى انقسام الوحدة الفكرية وحتى الثقافية وأصبح كل منها يشير بلهجته وسلطانه ومكانته ضمن المعمورة الجماعية وهذا ما أدى الى تهافت الكتاب لاستعمال مثل هذه اللهجات في نصوصهم الأدبية، ولا يقتصر الامر على الكتاب الجزائريين فقط، فقد مست هذه الظاهرة معظم الدول العربية بما في ذلك مصر، لبنان، تونس، المغرب وحتى الرواية الفلسطينية والسورية والعراقية.

وخير مثال يمكن ان نستشهد به في مداخلتنا هذه عن الكتاب الذين استعملوا العامية في كتاباتهم الروائية واسيني الأعرج هذا الكاتب الفذ الذي استطاع بكتاباته أن يدخل باب التميز في مجالات واسعة وخاصة في استعماله للعامية، والتي كانت بالنسبة له وسيلة لدق باب عديد من الفنون النثرية التراثية كالمثل والحكمة والاغاني الشعبية التراثية وحتى الشعر الحر. متقصيا في كل ذلك مختلف الطبقات الاجتماعية وما يميز كل طبقة من مستوى فكري ومعيشي وحتى اللباس والأكل، وفي معرض حديثة باللعة العامية يقول في روايته طوق الياسمين:

" يا النو صبي، صبي،

ما تصبيش علي،

حتى يجي خويا حمو،

ويغطيني بالزربية"

"يا النو ... يا النو ... يا النو صبي ... صبي "[6]

إن مثل هذه الأغاني الشعبية التي كانت تتردد على السنة الفتية في فصل الشتاء فرحا بنزول حبات المطر الذي يجمع بين دفئ الشمس ورهبة السحب وسكون البرد امتداد يربط

[6] واسيني الأعرج، طوق الياسمين، دار ورد، دمشق، ط2، 2006، ص297

بين الحاضر والماضي الذي لطالما يحن اليه المرء في مسيرته العمرية، يحن الى أيام الطفولة حيث البراءة والفرح والطمأنينة وكان سبيله في ذلك اللهجة العامية بكل تفاصيلها وألفاظها السهلة الواضحة المتداولة لدى مختلف الفئات والاعمار وحتى الطبقات الاجتماعية.

وقد تكون العامية وسيلته في التعبير على السخط الاجتماعي الذي يعيشه افراد المجتمع وخاصة في فترة ما بعد الاستعمار وما خلفته فرنسا على الساحة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومن ذلك قوله: " الدنيا بنت الكلب: كل واحد وزهره ...اللي صكته الدنيا صكته، الله غالب هذا هو المكتوب"[7]

وقوله أيضا "دير روحك بهلول تشبع كسور" [8]

نلاحظ مما تقدم أن للأمثال الشعبية حضورا قويا في كتابات واسيني الأعرج لما تحمله من دلالات ومعاني هادفة يسعى من خلالها الملقي للتعبير عن شعور السخط والبؤس والنقمة على الحياة الاجتماعية القاسية التي يعيشها المجتمع الجزائري في فترة من فترات حياته والمثل ينجم عن حكمة لدى قائله تتكون لديه بطول السنين لتعبر عن خبرته في الحياة وقدرته إعطاء الدروس ومجابهة الظروف.

ولا تقتصر وظيفة اللهجة العامية في الرواية على إثبات الهوية ونقل الحالة الاجتماعية البائسة للمجتمع الجزائري والظروف المزرية التي يعشها سواء في الماضي او الوقت الراهن بل تتعدى ذلك لتمثل وسيلة الترميز والايحاء وخاصة إبان الفترة السياسية المتأزمة التي عاشها الشعب الجزائري خلال التسعينات من القرن الماضي إذ اتخذ الكاتب اللهجة العامية كسلاح يمرر من خلالها عديد من القضايا المسكوت عنها لتظهر على الساحة الاجتماعية وتنقل لوعي القارئ ليعي الخبايا والدسائس المشكلة للصراع القائم بين الحكومة والجماعات الإرهابية وعامة الناس، فكان المثل الشعبي المنقول باللهجة العامية والشعر الشعبي وحتى

[7] واسيني الأعرج، طوق الياسمين، دار ورد، دمشق، ط2، 2006، ص230

[8] واسيني الأعرج، أصابع لوليتا، دار الآداب، بيروت، ط1، 2012، ص85

النكت و الأحجيات المتناقلة بين أفراد المجتمع كلمات مفاتيح ترسل من خلالها الرسائل المرمزة للتعبير عن حادثة أو وجود فئات مسلحة في مكان معين أو إلقاء القبض على فلان وأفضل دليل على ذلك ما اعتمده الطاهر وطار في روايته الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، أو ما اعتمدته فضيلة الفاروق في روايتها تاء الخجل عندما استعملت اللهجة الشاوية للتعبير عن أزمة الفتيات المغتصبات من قبل الجماعات الإرهابية وكأن اللهجة العامية هنا تمثل ذلك الغطاء المشفر الذي تحتمي به فتيات المناطق الجبلية اللواتي يعشن معاناة الظلم والقهر من جهة بسبب الاعتقادات الاجتماعية والتي تفرض على المرأة الصمت والكتمان ومن جهة أخرى رغبتهن في نقل ما حدث لهن إلى العامة حتى تعرف الفتاة الجزائرية كيفية الدفاع عن نفسها والمطالبة بحقوقها وكمثال على ما ذكر في الروايات السابقة الذكر قول الطاهر وطار في رواية "عرس بغل" بذكر ألفاظ متعددة في صفحات متوالية " سياج الصبار"[9]، "بيرة، هات بيرة"[10] ، "راسي يا حمود خويا راسي"[11] "إذا ما جاء اليوم صفيت حسابه، يا هو يا أنا؟" [12] "يا راس البطيخ" [13]

كلها مصطلحات عامية تحتوي دلالات دقيقة للتعبير على ذلك المجتمع الديكتاتوري الذي تمثل فيه القوى البؤرة الطاغية إلى جانب المستوى الاجتماعي المتدني الذي يعيشه الشاب الجزائري من جهل وبطالة وسوء معيشة إلى جانب الانحراف الأخلاقي بما فيه الشرب المدرسي، وتعاطي المخدرات ... إلخ. وعلى غرار الرواية السابقة نجد أيضا رواية

---

[9] الطاهر وطار: عرس بغل، بومرداس، الجزائر، 1975، ص:6

[10] المصدر نفسه: ص:16

[11] المصدر نفسه: ص:18

[12] المصدر نفسه: ص:19

[13] المصدر نفسه: ص:22

تاء الخجل لفضيلة الفاروق التي نجدها تمازج في حواراتها بين الفصحى والعامية ومن أمثلة العامية قولها: " كان لي راس تيس" نظرت إليه مبتسمة وقلت: "دز معاهم." [14]

معظم الحوارات التي استعملتها فضيلة الفاروق والتي تركز على اللهجة العامية تشير إلى تلك المرأة الهائجة الرافضة لواقعها المتحررة كتحرر الخط المكتوب من اللغة الرسمية، التي تريد المجابهة وتصدي الظروف القاسية لتحقيق ذاتها.

إن ازدواجية اللغة في النصوص الروائية لا تقتصر على استعمال اللهجة العامية واللغة العربية بل تتعدى ذلك لاستعمال اللغة الفرنسية ذلك الحطام المتبقي من الاستعمار الفرنسي وفترة ما قبل الاستقلال وقد كان للغة الفرنسية حضور قوي على مستوى النصوص الروائية على وجه الخصوص وذلك يرجع للثقافة الفرنكوفونية التي تثقف به جل الكتاب الجزائريون من أمثال واسيني الاعرج، رشيد بوجذرة، فضيلة الفاروق، أحلام مستغانمي، الطاهر وطار، زهور لونيسي وغيرهم كثر. نمثل على ذلك ماجاء في رواية "أحلام على أجنحة السراب "لإلهام بلحاج التي وظفت اللغة الاسبانية تقول:" ولزم الصمت، جاء حمو بطلباتهما، فحيا زيدان

-Hola Amigo(مرحبا صديقي)!

(...) Quermos una tarjeta sim (نريد شريحة هاتف)"[15] يعود سبب توظيف اللغات الأجنبية في النص الروائي الجزائري للتأثر بالكتاب الأوروبيين وكذا لثقافتهم واطلاعهم.

وعلى الرغم من انقسام النقاد وحتى المؤلفين الرواة الى فريقين تجاه استعمالهم للغة الفرنسية في كتاباتهم الروائية إلا ان ذلك لا يغطي حقيقة الواقع المعيشي الذي يعيشه جل

---

[14] فضيلة الفاروق: تاء الخجل، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2002، ص28

[15] إلهام بلحاج: أحلام على أجنحة السراب، دار خيال للنشر والترجمة، برج بوعريريج، الجزائر، 2020، ص24.97.

الكتاب الجزائريين في تعاملهم مع نصوصهم الروائية من استعمالات متكررة للغة الفرنسية و ان دل ذلك على شيء انما يدل على ذلك التأثر الدامغ للقلة المثقفة بالتيار الفرنسي سواء باعتمادها بتحقيق البريستيج الكتابي الذي يرتديه جل الكتاب، او باعتماده كوسيلة صادقة لنقل تعابير معينة، او اعتماده للتعبير على ملامح هوية وانتماء كاذب، او ازدواجية في الثقافة المكتسبة.

المهم ان لتواجد اللغة الفرنسية في كتابات الادباء الجزائريين ولاسيما الروائية منها حضورا ملموسا سواء على المستوى الشكلي باعتبار الخط الفرنسي " اللغة الفرنسية او ما يعبر عنه من تفكير غربي سواء المؤيد للحضارة المشرقية او المعارض لها والذي كان على لسان أولاده، وقد يكون ذلك من باب التوضيح وإزالة الإبهام الذي قطعه الجزائريون على أنفسهم لتوضيح الرؤية.

خاتمة:

تعد ازدواجية اللغة بين العامية والفصحى وحتى اللغة الفرنسية من مظاهر التحرر الكتابي في النصوص المعاصرة والتي تفتح الباب على مصراعيه للتعبير على عديد من الخوالج والأحوال التي تعجز اللغة الرسمية ايصالها الى المتلقي لما تحويه هذه اللهجات واللغات من تعابير وتصريحات صارخة دقيقة التعبير على الواقع المعاش.